الفصل الأول

وقفة أمام أسرار الحياة والموت

الفصل الأول

وقفة أمام أسرار الحياة والموت

١- لغز الحياة والموت:

كثيرة هي أسرار الوجود، إنه لغز مبهم غامض: أستار كثيفة مسدولة تحجب حقائق هذه الحياة على خلاف ما قد يبدو للوهلة الأولى، يبدو الوجود كأنه صفحة كتاب مفتوح، يستطيع أن يقرأ سطورها كل من يشاء ولكن عندما نبدأ فى قراءة هذه الصفحة.. تبدأ المزالق ومواطن الغموض ونواجه سراً بعد سر، ومعضلة وراء معضلة وسلسلة لا تكاد تنتهي.

أو كأنه صفحة بحر هادئ لا تلبث أن تتحول موجاً غاضباً يزمجر بالويل والثبور وعظائم الأمور.

هكذا يقف الإنسان أمام أسرار الوجود؛ مبهوتاً، حائراً، خائفاً، كالواقف على شفا الهاوية يتحسس نفسه فى ريبة وحذر، أو كطفل ضاع فى الزحام، يبحث عن أبيه، فكأنه فقد كل الحياة وكل الوجود.

قد يتعقل قليلا من الأسرار ولكن هذا القليل لا شيء بالنسبة إلى الكثير الكثير الذي لا يتناهى، الوجود في نظر الرجل البسيط شيء جلي مفهوم لا يحتمل المساءلة بله المحاجة. ولكن أمام النظرة المتفحصة التي تسبر الأغوار البعيدة؛ لغز من الألغاز، ومشكلة من أعقد المشكلات وقد لمس القديس أوغسطين[1]+٤٣٠م جانبا من هذا وهو يتساءل عن

(١) ولد القديس أوغسطين في طاجسطا بالجزائر عام ٣٥٤م ، وقد أقبل على شهوات الدنيا ، وتنقل بين المذاهب الفلسفية ما بين المانوية ، والأفلاطونية الجديدة ثم اعترته أزمة شك عنيفة ، حتى اعتنق المسيحية ، فوهب حياته في الدفاع عنها. (يوسف كرم : الفلسفة المسيحية ص ٢٠٣ ، حسن حنفي : نماذج من الفلسفة المسيحية ص ٩). محمد الزيني: أوغسطين وفلسفته ، مجلة كلية الآداب العدد ٢١ صنعاء ١٩٩٨.

ماهية الزمان قائلاً: «إذا لم تسألني عنه عرفته، وإذا سألتني عنه لم أعرفه!» [١].

هكذا تلوح أبسط حقائق الحياة والوجود لفكر الإنسان المتأمل الواعي، كأعقد المشاكل أمام السؤال الحائر.

نعم إن «الحياة في أساسها سر، إنها نهر يتدفق من نبع مجهول، وهي في نموها ذات حيل لا حد لها يعجز الفكر لشدة تعقدها عن معرفتها وهو في التعبير عنها بالقول أشد عجزا..» [٢].

الإنسان المتأمل الواعي في مواجهته لأسرار الحياة والوجود، في مواجهته للفناء والموت وما وراء الفناء والموت؛ في مواجهته للخير والشر، وعواقب الخير والشر؛ في مواجهته للقضاء والقدر وحرية الإرادة ومدى المسئولية إلى آخر مالا آخر له. هذا الإنسان لا يتقبل هذه القضايا كمسلمات أو أولويات يؤمن بها دون وسائط ودلالات، بل إنه ليتطلب الدلائل والبراهين بمقدماتها الصحيحة ونتائجها الحتمية. فهو دائب البحث عن الحقيقة من طريق المعرفة هذا الذي لا طريق سواه يضني في ذلك فكره وعقله وكيانه كله.

ما معنى الحياة والموت؟ الله سبحانه «أنشأ الحياة والموت.. وهما أمران معروفان كل المعرفة بوقوعهما المتكرر، ولكنهما خافيان كل الخفاء حين يحاول البشر أن يعرفوا طبيعتهما وسرهما الخافي على الأحياء.. فما الموت؟ وما الحياة؟ ما حقيقتهما حين يتجاوز الإنسان لفظهما وشكلهما الذي يراه؟ كيف دبت الحياة في الكائن فكان؟ وكيف سارت في طريقها الذي سارت فيه بهذا الكائن؟ وما الموت؟ وكيف كان.. قبل دبيب الحياة؟ وبعد مفارقتها للأحياء؟

«إنه السر الخافي وراء الستر المسبل، بيد الله!» [٣].

إن أسرار الحياة والموت المعماة، ووقائعهما المحيرة هي التي تقود البشرية إلى هذه

---

(١) أوغسطين : الاعترافات ص٢٤٩.

(٢) ديوارنت : مباهج الفلسفة جـ ٢ / ٢٩١.

(٣) سيد قطب : في ظلال القرآن جـ ٢٧ ، تفسير سورة النجم ص ٦٣٠.

النظرة الكئيبة والتساؤل الذاهل المفجوع: «شقاء هي الحياة ومجهول هو يوم الموت إن فاجأني، فكيف أغادر هذا العالم؟ وأين أتعلم ما قصرت عنه في هذه الحياة»[١].

إن الإنسان يريد أن يحل كل هذه المعضلات، يريد أن يطمئن إلى وجوده، وإلى معنى حياته:لماذا جاء إلى هذه الحياة، بكل ويلاتها؟ وكيف سيصحبها أو ستصحبه؟ وإلى أين هو ذاهب؟ وهل يكفيه أن يردد مع أبي العلاء (ت ٤٤٩هـ):

«تعب كلها الحياة.؟» وهل اكتفى بذلك أبو العلاء نفسه وهو المتحير الأكبر والمتلهف الذي لا يقتنع؟

من يأخذ بيد الإنسان في هذا الكون الملغز المبهم.. في هذه المتاهات المتشابكة ... من ينير له الدرب ويهتك له الستر وهو ينادي بأعلى صوت: «أين الحكيم يكشف لنا هذه الستائر؟ ويزيح الستار عما في الحياة من الغوامض»[٢].

إن حب الإنسان الدافق لهذه الحياة هو الذي دفعه كي يستجلي أسرارها ومع هذا لم يغب عنه شقاؤها، وكان متفهما لأبعاد مآسيها، وأحزانها، هذا هو علي بن أبي طالب يقول في وصف الدنيا: «ما أصف من دار أولها عناء وآخرها فناء، في حلالها حساب، وفي حرامها عقاب، من صح فيها سقم ومن مرض فيها ندم، ومن استغنى فيها فتن، ومن افتقر فيها حزن» [٣].

وهذا الخوارزمي (ت٣٨٣ هـ) ينزح من البئر نفسه: «أف لهذه الدنيا ما أكدر صافيها وأخيب راجيها، وأغدر أيامها ولياليها، وأنغص لذاتها وملاهيها؛ تفرق بين الأحبة بالفوات، وبين الأحياء والأموات بالوفاة»[٤].

وهذا المبرد (ت٢٨٥هـ) لا يشذ عن صاحبيه: «الناس لا ينفكون من المصائب، من لم يثكل أخاه؛ ثكله أخوه، من لم يعدم نفيسا كان هو المعدوم دون النفيس وحق الإنسان

(١) أوغسطين : الاعترافات ص ١١٤.
(٢) مي زيادة : ظلمات و أشعة ص ٣٨.
(٣) المبرد : الكامل جـ١ / ١٥٢.
(٤) رسائل الخوارزمي : ص١٠.

الصبر على النوائب واستشعار ما صدرناه، إذا كانت الدنيا دار فراق ودار بوار، لا دار استقرار»[١].

والناس مع أبي العلاء على شقاء الحياة، ولكنهم ليسوا معه على عجبه ممن يطلب المزيد، إن كان طلب المزيد لا يروقه هو، فهو يروق الكثيرين الكثيرين سواه.

هذه هي النغمة التي يضربون عليها عندما يتحدثون عن الكون وحقائقه.. والحياة وأسرارها، أما أنا فأعتقد أن كل الحقائق من الممكن فهمها، واستيعابها أو على الأقل الإيمان بها في الجملة، مع إطراح الجدل في تفاصيلها التي تهم الإنسان أو الخوض في هذه التفاصيل بحذر.

إلا أن هناك حقيقة محيرة ومؤلمة لهذا الإنسان: إنها مشكلة المشكلات الموت. إنها – في ذاتها حقيقة واضحة لا يمكن إنكارها إلا لسوفسطائي ينكر حقائق الأشياء.

وإذا كان الكثيرون – من غير السوفسطائية – قد تنكروا لكثير من الحقائق وأعلاها وأسماها «حقيقة واجب الوجود» وموهوا بكثير من الجدل والمشاغبة فإنهم لا يستطيعون أن ينكروا هذه الحقيقة (الموت) بل لا يستطيعون أن ينكروا قوة الموت، وسلطانه، وجبروته، ودبيبه الدائم في أعطاف الحياة ينسل خلال خلاياها خلية بعد أخرى، ووجوده المتصل في كل مكان وزمان «إن الحياة رحلة خلال سلسلة من وفيات»[٢]على حد تعبير الفيلسوف محمد إقبال المتوفى عام ١٩٣٩م.

وإيمان الإنسان السوي بالموت يبدأ مبكرا جدا قبل كثير من حقائق الوجود ففي مرحلة الطفولة يغمض علينا فهم وجود «واجب الوجود» أو تصور شامل لمفهوم العناية الإلهية، أو الخير والشر، ولكن لا يغمض علينا فهم معنى الموت، الذي نعايشه منذ نعومة أظفارنا، حقيقة واقعة مروعة تخطف أحباءنا وأصدقاءنا ورفقاءنا من بين أيدينا، وتتركنا مبهوتين ملتاعين.

---

(١) الكامل جـ٤ ص ١٧.

(٢) تجديد التفكير الديني ص ٦٦.

ومن ثم تترسب في نفس الطفل حقيقة الموت مطلقة، عامة عارية يتساوى أمامها الجميع فلا تمايز ولا تباين.

وبعد استيعاب هذه الحقيقة البسيطة، ومع نمو قدرات الإنسان العقلية واستعداده الوجداني تبدأ تساؤلات أخرى: تساؤلات عن طبيعة الموت، وهل هو ضرورة من ضرورات الوجود بعد تحقق الحياة؟ وهل هناك من حكمة لوجود هذه القوة المدمرة نفسها؟

ما معنى الموت؟ ما حقيقته؟ ما معنى هذا التحول في طريق الفناء؟

كيف يتحول هذا الإنسان الحي المتحرك، النابض بالحس، وربما المنتشي بالفرحة المتشوف إلى المستقبل في ابتسام وتفاؤل – كيف يتحول هذا الإنسان في لحظة واحدة، إلى جثة هامدة؟!

لا حركة، ولا نبض، ولا نشوة ولا بسمة، جثة هامدة، من الأكرم لها ولنا أن توارى بأعماق الثرى في جوف قبر مظلم تأوي إليه الحشرات والهوام، وربما بوسيلة أخرى أشد إيغالا في الإطراح والمواراة!

ثم إلى «أين نذهب بعد هذا الموت؟ ماذا يجري لنا بعد أن تصعد الروح إلى بارئها؟ وما حالنا منذ ذاك؟ هل نسمع ونرى بطريقة أو بأخرى؟ ونشعر بما حولنا، والذين يودعوننا إلى مثوانا الأخير؟ هل نستأنس بهم وهل نصغي إلى هذا الملقن الذي أقحموه كدعابة على موقف هو أبعد ما يكون عن الدعابات؟ هل نستوعب نصائحه إن صح أن تسمى نصائح، وكلامه الذي قد يروق جرسه للوهلة الأولى؟ هل ندري إذا استقررنا هناك أننا في القبر؟ وهل نسمع القرآن المقروء بجانب رؤوسنا الموسدة التراب، إن بقيت لنا رؤوس؟ وهل نعلم ما يجري بعدنا في الدنيا ونحن في العالم الآخر، أ نسعد بهذا العالم الآخر أم نشقى به؟»[1].

إنها أسئلة حائرة، تجتاز منطقة مبهمة، من الصعب كشف أسرارها، فالذين يذهبون

(١) محمد الزيني : ابن القيم وآراؤه الكلامية ص ٥٧.

لا يعودون لكي يقصوا علينا القصة كاملة أو منقوصة: الذين ساروا في الطريق حتى نهايته يذهبون بأسرار الرحلة والذين شربوا الكأس حتى الثمالة لا يستطيعون أن يبوحوا بكنه طعمها!

«أيها الموتى أ طيرا كنتم أم بشرا، ألا تنطقون مرة واحدة لكي تفضوا إلينا بما طوى من الأسرار وراء حجب الردى؟ ألا تهمسون في نفوسنا بالكلمة الأولى من اللغز الأزلي السرمدي الكامن في ضمير الوجود»[١].

هكذا يقف الإنسان حائرا أمام الموت وأسراره، مهزوما في مواجهته، ليس له حيلة في الفكاك منه، عليه أن يتقبل- شاء أم أبى- ذلك «الزائر المرعب» ويسلم له قياده إلى حيث لا يدري ولا المنجم يدري إلا أطيافا كحلم النائم قلما يطرقها اليقين.

وكل ما استطاع أن يفعله – عندما عجز عن أن يمد عمره في هذه الحياة هنيهة واحدة – أن حاول الالتفاف للوصول إلى هذه الغاية بصور مختلفة تمثلت في التراث الضخم المادي والمعنوي الذي خلفته لنا حضارات الأجناس المتباينة، الدانية والقاصية إلى أن تداركه الغوث الروحي من قبل السماء، ثم عمل جاهدا على أن يفلسف هذا «الحدث المروع» ليسهل عليه – إلى حد ما – تقبله والانقياد له بغير كثير من الوجل والخوف، أو الجزع والهلع.

٢- صيرورة الوجود:

قانون التغير والصيرورة، هو السمة المميزة لهذا الوجود؛ فهذا في طبيعة الحياة التي نحياها؛ في إطار هذا الكون لا يكاد يثبت شيء على حال أو كما يقال: بقاء الحال من المحال.

وقديما تنبه هيراقليطس[٢] (+ ٤٧٥ ق.م) لهذه الظاهرة المطلقة، وقررها بلا لبس؛ إذ

---

(١) مي زيادة : ظلمات وأشعة ص ٣٨.

(٢) من الفلاسفة الطبيعيين في بلاد اليونان ولد في أقسوس عام ٥٤٠ ق.م من أسرة عريقة في الحسب ، اتسمت حياته بالزهد لكنه كان أرستقراطيا معتدا بنفسه.
(يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ص ١٧ ، أميرة حلمي مطر : الفلسفة عند اليونان ص ٥٣.

رأى النهار يعقبه الليل والشمس يتبعها القمر، كل في فلك يسبحون وكيف يتعاقب الحرب والسلام، والحر والبرد، وتتحول طردا وعكسا اليبوسة إلى سيولة، والماء إلى بخار، والصحة إلى مرض والغنى إلى فقر. والحياة إلى فناء. حتى لقد قال مقولته الشهيرة: «إنك عندما تنزل النهر فلا تنزله مرتين لأن مياها جديدة سوف تغمرك باستمرار»[١].

وانظر أنت إلى بذرة القمح الصغيرة كيف تتحول من قريب إلى برعمة ندية خضراء، ثم تنمو وتنمو حتى تستوي على ساق، ثم تكون نباتا مكتمل النضج تحوي ثماره كل خصائصها، ثم إذا هي قشة تذروها الرياح العاصفة فيما تذرو فلا يعثر لها على قرار إن كان ثم قرار.

أو انظر إلى رحلة الحياة بالنسبة إلى الإنسان: حيوان منوي لا يرى إلا بالمجهر، يلتقي مع بويضة الأنثى، ويكونان خلية تحمل كل الصفات الوراثية الكامنة فيها، تتحول بعد إلى جنين في أطواره الأولى ثم في أطواره الأخيرة فطفل صغير، فغلام، فشاب فرجل فكهل فشيخ قد يرد إلى أرذل العمر ثم النهاية التي لا مفر منها هي النهاية الحتمية خلال أو بعد ذلك.

«ومن يتوفى فهو صائر إلى نهاية كل حي، وأما من يرد إلى أرذل العمر فهو صفحة مفتوحة للمتدبر ما تزال»[٢] وما ينطبق على النبات والحيوان الناطق وغير الناطق، ينطبق على مظاهر الطبيعة جميعا « فلا ثبات لشيء من الدنيا وإن كان شريف الجوهر كريم العنصر، ما دام مقلبا بيد الليل والنهار، معروضا على أحداث الدهر وتعاور الأيام»[٣].

هذه الحقيقة- حقيقة ديناميكية الوجود- لم تكن وقفا على هيرقليطس الذي توفر على دراسة هذه الظاهرة، فممن تنبه إليها قديماً الشاعر الجاهلي امرؤ القيس[٤] المتوفي عام ٥٦٥

---

(١) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ص ١٧.
(٢) في ظلال القرآن جـ ١٧ / ٥٨٢ ، وأيضا جـ ١٤ / ٢٦٢.
(٣) معجم الأدباء جـ ١٦ / ٢١.
(٤) هو امرؤ القيس بن حجر الكندي ، ولد في نجد أوائل القرن السادس الميلادي ، عاش حياة الصعلكة العربية حتى أتاه خبر مقتل أبيه ، فأخذ يعد بثأره ومات بسبب الجدري وفي شعره رقة اللفظ وجودة السبك وبلاغة المعنى (بروكلمان : تاريخ الأدب العربي جـ ١ / ٩٧، شوقي ضيف : العصر الجاهلي ص ٢.

م عندما قال: إنما الدهر ليال وعصر ليس شيء يستمر[١].

والشاعر الزاهد أبو العتاهية[٢] المتوفى عام ٢١١ هـ إذ يقول:

نحن في دار بلاء وأذى، وشقاء وعناء وعنت

منزل ما يثبت المرء به سالما، إلا قليلا إن ثبت [٣]

والشهيد سيد قطب المتوفى عام ١٩٦٦م يقف أمام هذه الظاهرة بشيء من التأمل والتحليل وهو بصدد تفسير قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٩] فيقول: «تلك العملية الدائبة التي لا تكف ولاتنى لحظة واحدة من لحظات الليل والنهار في كل مكان، على سطح الأرض، وفي أجواز الفضاء، وفي أعماق البحار.. ففي كل لحظة يتم هذا التحول. بل هذه المعجزة الخارقة التي لا نتنبه إليها لطول الألفة والتكرار، في كل لحظة يخرج حي من ميت، ويخرج ميت من حي، وفي كل لحظة يتحرك برعم ساكن من جوف حبة أو نواة فيفلقها ويخرج إلى وجه الحياة، وفي كل لحظة يجف عود أو شجرة تستوفى أجلها فتتحول إلى هشيم أو حطام، ومن خلال الهشيم والحطام توجد الحبة الجديدة الساكنة المتهيئة للحياة والإنبات؛ ويوجد الغاز الذي ينطلق في الجو أو تتغذى به التربة وتستعد للإخصاب. وفي كل لحظة تدب الحياة في جنين: إنسان أو حيوان أو طائر»[٤].

وهذا التغيير المصاحب للموجودات، لا يجيء خبط عشواء، بل يخضع لقوانين سارية خلال الكون. قد نسميها بالقوانين الأزلية، أو الاتساق المقدر كما يقول ليبنتز+١٦١٥م، أو العناية الإلهية

---

(١) ديوان امرؤ القيس ص ٤.

(٢) هو إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان ولد في عين التمر بالعراق ١٣٠ هـ، وكان أبوه يشتغل بالحجامة، ثم انتقل إلى الكوفة، وهناك تلقى ابنه العلم وظهر نبوغه فقربه إليه المهدي والهادي والرشيد، وفي آخر حياته تزهد ولبس الصوف ومات ٢١١هـ بروكلمان: تاريخ الأدب العربي جـ ٢ / ٣٤، شوقي ضيف: العصر العباسي الأول، حنا الفاخوري: تاريخ الأدب العربي ص ٦.

(٣) ديوان أبي العتاهية ص ٧٣.

(٤) في ظلال القرآن جـ ٢٧ / ٤٤٦.

﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ [الفتح: ٢٣].

ومن قوانين الحياة الفناء: الوجه الآخر المقابل لها. وهو قانون حتمي مطلق لا مفر منه ويمثل سمة لافتة وباهرة من سمات هذه الحياة، وما «الموت» فيما وراء الطبيعة إلا مظهر من مظاهره أو أداة من أدواته نقف أمامها في خشوع وتدبر، وتأمل وتفكر، عسى أن تتفتح لنا بعض أغلاقها.

٣- الوعي المبكر لحتمية الموت:

«حتمية الموت» مسألة حسية وعقلية: بمعنى أنها تجربة يومية نلمسها بأنفسنا، ونعيشها كل يوم من أيام حياتنا؛ وعقلية لأننا نعيها بعقولنا، ونتقبلها بضمائرنا ويبقى السؤال هل هذه هي نظرة الإنسان البدائي القديم؟

يذهب أحد الباحثين الأوروبيين إلى «أننا لا نجد في أقدم مراحل التطور الإنساني إنكاراً لنهائية الموت فحسب، وإنما نفيا لحتميته كذلك»[١].

وأغلب ما لوحظ أن الإنسان البدائي حينما يرى رجلاً يموت من أبناء جنسه فإن ذلك يبدو له كما لو كانت المرة الأولى التي يحدث فيها شيء من هذا القبيل وأنه لم يسبق له أن شاهد مثل تلك الواقعة. وتفسيره لأسباب الموت ترجعه « لقوة خفية » قد تدخلت فأودت بحياة الإنسان. فالموت عنده هو «نتاج عمل عدو أو تأثيره الشرير، سواء في شكل إنساني أو روحاني»[٢].

أما بالنسبة إلى منشأ معرفة الطفل بالموت، فهو يعي هذه المسألة في مراحل الطفولة المتوسطة. فهذا الطفل الذي يلهو بطائر أو حيوان صغير في حبور أي حبور، كثيرا ما يفجأ الموت لعبته الحبيبة فينتزعها من بين يديه لتصير جثة بلا حراك، دون مبالاة بفجيعة الطفل في مباهجه، لتخلى مكانها للدمعة والآهة واللوعة. وربما يكون هذا بالنسبة إليه أول مواجهة صريحة مع الموت. ويتقبل الطفل على مضض هذه الحقيقة المروعة التي تهزه من

(١) جاك شورون : الموت في الفكر الغربي ص ١٥.
(٢) ليفي بريل: العقلية البدائية ص ٣٧ (نقلا عن جاك شورون : الموت في الفكر الغربي ص ١٦).

الأعماق، ويترسب في باطنه الخوف الدائم، والحذر المستمر من الموت، كشيء رهيب – وإن كان بتفكيره الطفولي لكي يهدئ ثائرة نفسه – يعتقد أن الموت لا يأخذ الأطفال الصغار أمثاله[١]، بالرغم من أنه يرى بعض أصدقائه الصغار قد صحبهم الموت في رحلته الغامضة إلى المصير المحتوم.

«ويقدم لنا جيزيل صورة مفصلة لنشأة فكرة الموت عند الأطفال: فالطفل في الخامسة من عمره يظل غير قادر على تصور عدم كونه على قيد الحياة أو أن أحداً قد عاش قبله، فيدرك الطابع المتناهي للموت، وقد يظن أن بمقدوره العودة للحياة وموقفه من الموت هو موقف التجرد من الانفعال والتسليم بالأمر الواقـع.

أما الطفل في السادسة من العمر؛ فيبدأ مرحلة الاستجابة الانفعالية تجاه الموت، وتظهر عليه علامات القلق من احتمال موت أمه، ويظل على عدم تصديقه بأنه هو نفسه سيموت.

أما في سن السابعة؛ فيتشكك في هذه الفكرة وفيما بين الثامنة والتاسعة يدرك إدراكا واضحا أن الجميع سيموتون، وأن الموت أمر حتمي في هذه الحياة[٢].

وبمرور الأيام يصير رجلا عاقلا، ويظل هذا الإحساس المنغص مسيطرا على وجدانه؛ وبشيء من التقبل الفلسفي يدرك أنه في داخله: «ينطوي على جرثومة موته»[٣].

٤- الموت مشكلة فردية وجماعية:

هذا التقبل لا يقلل من قيمة المشكلة، وإحساس الإنسان أنها مشكلة فردية وجماعية إلا أنها تخصه بالدرجة الأولى: فهي ملتصقة به تهدد وجوده الحي، في كل لحظة من لحظات ليله ونهاره، تتبع خطاه.. بخطى وئيدة أو سريعة، وفي جميع الحالات بإصرار عنيد، لا فكاك منه ولا مهرب، وبين آونة وأخرى يرى الموت رأي العين في العيون الساهمة، والعبرات المنحدرة، والصرخات المعولة في وداع راحل، وفي المشاهد الحزينة للنفوس

(١) بنجامين سبوك: مشكلات الآباء والأمهات ص ٢٣٦.
(٢) الطفل من الخامسة إلى العاشرة ص ٤٤٩ (نقلا عن جاك شورون: المصدر السابق ص ١٨).
(٣) أوغسطين: الاعترافات ص٧.

المحمولة على الأعناق أو غير الأعناق إلى المثوى الأخير، وما وراء المثوى الأخير.

شعور مرير، وتجربة تعسة يزيدان من مأساة الإنسان في هذه الحياة ويؤكدان أن الموت «من أعظم المشكلات الفردية التي قلما عرفت بهذه الصفة»[١]. ومن أعظم المشكلات الجماعية أيضا. لأن الجماعة عبارة عن مجموعة أفراد تعيش على أرض واحدة، وتجمعها مجموعة من الروابط المادية والمعنوية، والموت حثيث في طلبها زرافات ووحدانا: فأنا وأنت، وهو وهم، ونحن وأنتم، والأجيال تتتابع جيلا وراء جيل، أرحام تدفع وأرض تبلع؛ وتظل الأرض هي الأرض، والسماء هي السماء لا تباليان من ذهب ومن بقى، هكذا شاءت العناية الإلهية.

ولو قارنا بين الموت على المستوى الفردي والمستوى الجماعي، لوجدنا أن الأول أكثر إلحاحا على العقل، وأبلغ تأثيرا في الوجدان، وأشد سحقا للنفس البشرية؛ فالموت على هذا المستوى ليس مفزعا فحسب، بل هو مروع ومدمر فيه « يتم الشعور بالفردية إلى أقصى درجة إذ يشعر من يموت أنه يموت وحده لا يشاركه في موته أحد، ولا يستطيع أحد أن يحمل عنه عبء موته فيقوم بالموت بدلا منه»[٢] على حد تعبير مارتن هيدجر (+١٩٧٦م).

أما الموت على المستوى الجماعي فيتعلق بالذات الجماعية الهلامية – إن صح التعبير – وإن كان يتمثل بمعيار أنت وأنتم، وهو وهم، ولكنه لا يخص الأنا.. ومن ثم فهو لا يستحق منا إلا مواساة الآخرين. إذ إن «الذات» مازالت معافاة من هذه الآفة البغيضة والموت هنا «كبندول الساعة» [٣] صعودا وهبوطا في حصاده لنفوس الآخرين، وإطفائه لومضات حياتهم، بينما هو لا يقترب من نطاق «الأنا»- فهذا النطاق حتى الآن آمن ولو أمناً حذرا، أو الموت هنا كمثل «الحوت» الذي يسبح في بحار الآخرين، يلتهم ما يلتهم من أرواحهم ولكن مياه «الذات» الإقليمية- باصطلاح علوم البحر- تظل في مأمن من

(١) سكنر : تكنولوجيا السلوك ص٢٠٨.

(٢) الدكتور عبد الرحمن بدوي : دراسات في الفلسفة الوجودية ص٨٩ وأيضا الدكتور زكريا إبراهيم : دراسات في الفلسفة المعاصرة ص٤٣٨.

(٣) هذا الاصطلاح يرجع للروائي العربي نجيب محفوظ ، قرأته له في مجلة الهلال المصرية في الستينات.

جولات وصولات الحيوان الجائع المفترس وبتعبير آخر «لو أننا نظرنا إلى الموت على مستوى الحياة العادية، لوجدنا أن الناس ينظرون إليه على أنه مجرد حدث يقع للآخرين في العالم، وآية ذلك أننا نرى «الآخرين» يموتون، فنعتبر الموت هو موت الآخر (لا موت الأنا) ونحاول أن نخفي عن أنفسنا واقعة «وجودنا من أجل الموت «عامدين إلى القضاء على كل قلق قد يساورنا بهذا الخصوص»[١].

ألا ترى إذن أن الموت لا يتحول إلى مشكلة حادة إلا بمقدار اقترابه من دائرة عواطفنا الخاصة، ووجداننا؛ أي بمقدار اقترابه من الذات أولا، ثم دائرة اهتمامها المباشر، القاصر على الأهل والقريب والصديق، وفيما عدا ذلك فالموت هو موت الآخرين، على ما فيه لنا نحن من مخافة ورعب، كما أشار باسكال[٢](+١٦٦٢م) في تشبيهه الشهير: «تصور عددا من الناس مقيدين بالسلاسل وكلهم محكوم عليهم بالموت، ويذبح البعض منهم كل يوم على مرأى الآخرين، ويرى الباقون حالتهم الخاصة من خلال حالة رفاقهم، وينظرون إلى بعضهم البعض بحزن ويأس وهلع ... وهم ينتظرون دورهم، هذه صورة للحالة البشرية»[٣].

ويقدم الفيلسوف الفرنسي الوجودي مارسيل[٤] (+١٩٧٣م) وصفا مشابها لهذه النقطة فيقول: «الموت لا يصبح إشكالاً أليما، اللهم إلا حينما نكون بصدد موت الـ أنت (أو موت الحبيب) ومعنى هذا أن الموت لا يقلقنا ويقض مضاجعنا حينما نكون بإزاء واقعة الفناء بصفة عامة وإنما حينما نكون بصدد غياب الشخص الذي نحبه غيابا مطلقا، إذ هنالك يصبح موته تحديا لنا وتحطيما للوحدة القائمة بيننا»[٥].

---

(١) زكريا إبراهيم : دراسات في الفلسفة المعاصرة ص٤٣٧.

(٢) ولد في كليرمون بفرنسا عام ١٦٢٣م من أسرة تعمل بالقضاء ، وقد توفر والده على تعليمه الرياضيات ، حتى أصبح عالما كبيرا.(نجيب بلدى : بسكال ، يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ص٨٩).

(٣) سكنر : تكنولوجيا السلوك ص٢٠٨.

(٤) جبرائيل مارسيل ولد في باريس سنة ١٨٨٩م من عائلة مسيحية بورجوازية وقد نبغ في دراسة الفلسفة ، وعمل بالتدريس ، والاشتغال بالصحافة (زكريا إبراهيم : دراسات في الفلسفة المعاصرة ص٤٩٩.

(٥) زكريا إبراهيم : دراسات في الفلسفة المعاصرة ص٤٩٩.

٥- موت الإنسان ليس كسقوط الثمرة الناضجة:

تبقى نقطة تزيد من قتامة صورة الموت؛ ذلك أنه يلاحق خطواتنا في كل مكان وزمان، ليواثبنا أينما ومتى شاء. إنه قد لا يمهلنا حتى نحقق آمالنا، ونحصل على مآربنا،ثم بعد ذلك يمد يده القاسية ليقطف ما شاء من قطاف العمر الدانية « كالثمرة الناضجة اللذيذة » اكتمل نموها ونضجها وحان قطافها شهية حلوة المذاق؛ بل يهتصر الغصن الرطيب قبل أن يثمر، ويجتز الثمرة الطالعة قبل أن تنضج، فإذا الجثث الهامدة في ملاعب الطفولة، وفي مراتع الشباب، أكثر ما تكون، وإذا الآمال والأحلام قصور خاوية من رمال.

ربما يكون فيلسوفا بعيد الغور من زعم أن «من ولد يموت بعد أن ينضج ويحين حصاده»[١]. إلا أنا أعجز من أن نسبر غوره، ومع هذا لا نوافقه على هذا الزعم.

فنحن جميعا- كما يقول حبر الأمة- ابن عباس: «الموت من ورائنا والقبر أمامنا»[٢] هذا الحصار الذي لا فكاك منه يستمر حولنا طفولة وشباباً، وكهولة وشيخوخة، وكما يطبق على الشيخ في أرذل العمر يطبق على الطفل الذي ولد لساعته إلى آخر السلسلة. وهذا الفيلسوف البعيد الغور حين يقول: «المرء كسنبلة القمح تولد لتنضج، وتحصد متى آن أوانها»[٣] ماذا يعنى؟ إذ لا يخفى عليه ولا على أحد أن ليس من الضروري أن يعيش الإنسان حتى ينضج في حقل الحياة على يد الشيخوخة أو على أية يد دون يدها، كما ينضج النبات في حقله، بل ولا ذلك من الضروري بالنظر إلى الثبات نفسه.

وقديما ذهب ماركوس أوريليوس[٤]الرواقي (ت ١٨٠ م) إلى هذا التشبيه، فاعتقد أن موت الإنسان يشبه سقوط الثمرة التامة النضج «ولكن الحقيقة أن الإنسان مهدد بالموت في كل لحظة من لحظات حياته إن لم نقل منذ بداية حياته، فليس في موتي واقعة

---

(١) يوسف موسى : تاريخ الأخلاق ص١٣٢.
(٢) الغزالي : إحياء علوم الدين جـ٤ /١٨٤.
(٣) يوسف موسى : تاريخ الأخلاق ص١٣٢.
(٤) من زعماء الفلسفة الرواقية في طورها الثالث والأخير وكان إمبراطورا على روما ولد عام ١٢١م (د / عثمان أمين : الفلسفة الرواقية ص٢٠٧).

تظهر في خاتمة حياتي بل إنما هو واقعة ماثلة في كل لحظة من لحظات حياتي»[١]، ويمضي مارتن هيدجر في رده على الفيلسوف الرواقي، فينفي أن يكون الموت تتويجا للحياة،بمعنى القمة العليا التي تبلغها، وليس هو الثمرة التي تبلغ فيها الحياة تمام نضجها، لأن الحياة لا تبلغ أعلى درجاتها في الموت، ولأن الثمرة تمثل التمام بينما الموت تحطيم للحياة وقضاء عليها»[٢].

٦- سخرية الموت من البشر:

لا تتوقف قصة الموت مع الإنسان على هذه الملاحقة المستمرة، ففي قمة سعادة الإنسان يأتي الموت ساخرا. تمد الحياة أسبابها للإنسان، وتعطيه الكثير والكثير من الصحة والمال والبنين والعلم وذيوع الصيت حتى ليطغى ويستكبر، ظاناً أن قد حيزت له الدنيا بحذافيرها، فإذا لطمة ثقيلة مفاجئة من يد الموت المتربص الساخر، ترده إلى وعيه الحقيقي؛ إنه ليس إلا ذرة مغرورة في هذا الهباء السابح تتلاشى، أو نبتة مغمورة في البرية تجف، أو قطرة ماء في محيط تتبخر! هكذا في قمة الفرحة تأتي الأحزان! ولكل شيء إذا ما تم نقصان «قضية صادقة في أغلب الأحوال.

العجيب أن الإنسان- وهو يتربص به الموت من كل مكان – يغر بطيب العيش، ورغد الحياة، وابتسام الدنيا، وينسى دوماً: « أن النعم زائرة، وأنها لا محالة زائلة، وأن السرور بها إذا أقبلت مشوب بالحذر من فراقها إذا أدبرت، وأنها لا تفرح لإقبالها فرحا حتى تعقب بفراقها ترحاً، فعلى قدر السرور يكون الحزن»[٣]. على أية حال فالإنسان يمضي على غلوائه حتى تبلغ السخرية منه مداها فيأتيه الموت من كل مكان « ففي ظلام الليل ينادي الأخ أخاه، والأم ابنها، والزوج زوجته، والمحب حبيبته، وعندما تتمازج أصواتنا وتتعالى إلى كبد الفضاء، يقف الموت هنيهة ضاحكا منا مستهزئا بنا، ثم يسير محدقا إلى الأفق البعيد»[٤].

أليست هذه هي الحقيقة، ومع هذا فإذا ذكر – أي إنسان – بالموت في موعظة الموت

---

(١) زكريا إبراهيم : المصدر السابق ص٤٣٨.
(٢)عبد الرحمن بدوي : دراسات في الفلسفة الوجودية ص٨٩.
(٣) الماوردى : أدب الدنيا والدين ص٢٢٠.
(٤)جبران خليل جبران : العواصف ص٤١٨ (ضمن الأعمال الكاملة).

أو حيث يطل عليه من مكان قريب، فما أسرع ما ينسى حين ينجلي عنه كل ذلك، ويعود سيرته الأولى فينغمس إلى النخاع فيما كان قد آلى على نفسه ألا يعود إليه.

نراع لذكر الموت ساعة ذكره ونغتر بالدنيا، فنلهو ونلعب [١].

٧- الاستسلام النهائي للموت:

إذا كان تذكر الموت سياج أمان، فإن نسيانه في أكثر الأحيان ضرورة أي ضرورة. لأن في هذا النسيان المؤقت العزاء لمأساة الإنسان على هذه الأرض، والبلسم الشافي لجرحه العميق، لاسيما في فتوة الشباب، ونضارة العمر.

أما إذا امتدت الرحلة، وأوغل الإنسان في سني العمر، وبعد عن شاطئ الأمان – إن كان هناك شاطئ أمان – فإن الموت يتحول خاطرا ملحا يهمس بالنهاية الوشيكة؛ باقتراب أفول النجم، وانطفاء المصباح؛ بل ناقوساً لا يكاد يكف عن الرنين في صحراء العمر التي أوشكت أن يأتي الجدب والجفاف على آخر نبتاتها. هنا تستيقظ الذكرى بكل آثارها المادية والمعنوية، وينصرف الفكر إلى رحلة مستغلقة الأبعاد، كثيرة الدروب، لا يدري إلا الله عن ماذا ستسفر أو إلى ماذا ستؤول.

هنا يستسلم الإنسان، بعد أن نفذت ذخيرته، وألقى سلاحه، كما استسلم ملايين من البشر قبله، وكما يستسلم ملايين آخرون بعده، حتى الفراعين والطغاة، ولا أقول اللصوص والقتلة، ويصور «ديورانت» صاحب قصة الحضارة هذا الاستسلام أصدق تصوير، إذ يقول: «هاهنا رجل شيخ على فراش الموت يزعجه أصدقاء لا حيلة لهم ...على هذا المعبر مر الشباب بكل آماله ومحاولاته. وعلى هذا المعبر اجتازت الرجولة بكل عذابها وعملها. وعلى هذا المعبر مرت الصحة والقوة والمنافسة والبهجة ... مرت سبعون عاما، فنما من حيوان إلى إنسان قادر على البحث عن الحقيقة، وخلق الجمال، ولكن المنية قد أنشبت فيه أظفارها، فسممه الموت وخنقه، وجمد دمه، وقبض قلبه، وفجر مخه، وحشرج حلقه – لقد انتصر الموت»[٢].

---

(١) ديوان أبى العتاهية ص٤٨.

(٢) ول ديورانت: مباهج الفلسفة جـ٢ ص٣٠٦.